السرد الرحلي والتاريخ .. هوية شخص وأمة دراسة في رحلة خلال جزولة للمختار السوسي[1]

الحسن الغشتول[2]

1- الإشكال التاريخي في الرحلة عند المختار السوسي

نبتغي فـي سياق محاولتنـا لاكتشـاف بعض الخصـائص المميزة للتـأليف الرحلـي لـدى المختار السوسي، أن نجيب في البداية عن سؤال عام، هو إلى أي مدى يمكن لكتابة الرحلة أن تتيح توحُّد ذهنين فـي كيـان امرئ واحـد؟ أي كيـف تجمـع هذه الكتابـة بين شـاهد علـى عصر معين يلح في أن يقدِّم مادته التاريخية في شكل استعراض وصفي، وبين محلل لتلك المادة ومقبل على استبصار أحوالها بوضعها في محك الاختبار، وإخضاعها لشروط العقل بمـا يلزمـه مـن استدلال وقيـاس؟ فمتـى تكـون الوقـائع التـي يوردهـا الرحالـة فـي رحلتـه، محققة بلوغ معرفة تاريخية منظمة، وغير زائفة؟

إننا نتصور أن بلوغ هذا الهدف تمنعه أشياء ثلاثة، هي فـي الأصـل نقـائص تـؤدي إلـى الإخـلال بجـوهر الكتابـة التاريخيـة ذاتهـا؛ فالمـانع الأول هـو غيـاب قـدرة الرحالـة ـ بصـفة عامة ـ على تمثل الأحداث التـي يرويهـا، وعلـى تقمص شخصيات التـاريخ التـي يتعرض

[1]- خلال جزولة، لمحمد المختار السوسي. المطبعة المهدية، تطوان، المغرب، دت. 4 أجزاء.
[2]- أستاذ باحث، طنجة

إلى ذكرها في مقامات خاصة، داخل رحلته[3]. أما المانع الثاني فهو عدم إصغائه إلى صوت العقل، وعدم أخذه ببداهة الأشياء، وركونه ـ بدل ذلك ـ إلى سلطة أهوائه التي تحجب عنه الحقائق، حيث ينزع إلى كتابة تاريخ «مزاجي» مليء بالتعصب الذي يتخذ أشكالا شتى لدى كثير من المؤرخين[4]. ويتمثل المانع الثالث في عدم تقيده بما تفرضه الوثائق التاريخية، سواء تلك الحقائق المادية المنصوص عليها في رحلته، أو تلك الوثائق المستنبطة من الإيماءات والرموز والمجازات والأساطير.

وانطلاقا من هذا التصور، سنسعى إلى رصد جانب من جوانب التأليف الرحلي عند المختار السوسي، لنعرف إلى أي مدى يظل هذا التأليف قريبا من التاريخ، وإلى أي مدى لا يُفهم إلا بوصفه تمهيدا له. لهذا يفترض المقام هنا ألا تحيد كتابة الرحلة عن جوهر رسالتها التاريخية وشروطِها الاعتبارية والعلمية، وأن تنتفي فيها بذلك الموانعُ التي ذكرنا سالفا.

غير أن من الإشكالات التي لا نستطيع الإغفال عنها في سياق الوصل بين الرحلة والتاريخ، إشكالا يتعلق بطبيعة الفعل الإنساني في الرحلة التي تصنَّف ضمن النوع التاريخي. فأي فعل ينظر إليه أنه ذو قيمة تاريخية، وهل كل ما نجده في الرحلة من أفعال، يرقى مقاما نسميه بموجبه فعلا تاريخيا؟

---

[3]- لا تعدو هذه القدرة وحدها أن تكون مجرد عاطفة غير مثمرة، باعتبار أن الإصرار عليها وحدها يؤدّي إلى لون من ألوان التاريخ الزائف، أي التاريخ الذي يسعى إلى التعبير عن مشاعر المؤرخ تجاه الماضي فقط، ومن هذا النوع تاريخ) بعض (النزعات الوطنية والسياسية الحزبية، أو التاريخ الذي توصي به مثل عليا حرة أو إنسانية أو اشتراكية، أو بصفة عامة كل تاريخ يهدف إلى واحد من اثنين إمّا حب المؤرخ وإعجابه بموضوعه، أو كراهيته واحتقاره له. انظر فكرة التاريخ ، لر. ج. كولنجوود. ترجمة محمد بكير خليل. مراجعة محمد عبد الواحد خلاف. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. 1961م : 357.

[4]- هذا ما نبّه إليه «كروتشه» حين رأى أن المؤرخين كلما أرخوا العنان لتفكيرهم، أو فسروا الوقائع استنادا إلى مجرد الاحتمال أو الممكن وقوعه، أضفوا بذلك طابعا شعريا أو رومانتيكيا على التاريخ. فالتاريخ الحقيقي لا يعرف مجرد «المحتمل» أو مجرد «الممكن»، وكل ما يستطيع أن يقوله المؤرخ، هو ما تفرضه عليه الوثائق التاريخية. انظر المرجع نفسه : 357 - 358.

للإجابة لا مناص لنا من أن نميز بين أفعال تصدر عن الفاعل الرئيس أو الفاعلين الذين اقتضت الرحلة ذكرهم في مواضع معينة، أو الذين تُروى عنهم مجموعة من الأخبار المتنوعة، وبين أفعال أخرى حاصلة في ذهن المؤرخ، حيث لا نستطيع إدراج الأخبار الرحلية في صميم المعرفة التاريخية، إلا بمقدار خدمتها لتصور تاريخي خاص به. ولذلك، فإن وظيفة الرحلة التاريخية لا تتحقق إلا إذا استوفت هذا الشرط. وإذا لم تستوفه، فإن صاحبها لا يكون محلِّلا لوثيقة بشرية[5]. إذا لم يكن الرحالة ذاتا متأملة إذن، ما جاز لنا أن نتحدث عن مجهود تاريخي يقوم به.

2- السرد في خدمة المنهج التاريخي

لا يخامرنا شك في أن كتابة المختار السوسي عن رحلة جزولة تدخل ضمن مشروع فكري أخذت معالمه تتحدد في سياق التهميش الذي عرفته البادية المغربية، خلال ظرف تاريخي معين. لقد رد السوسي ـ شأنه في ذلك شأن نخبة من علماء جيله ـ على المنطق الاستعماري الذي كان يزعم أن في المغرب مناطق مغمورة لا تاريخ لها.

أراد السوسي صاحب النزعة الوطنية المستمدة من أصول الدين الإسلاميّ[6]، أن يثبت أن علماء المغرب استطاعوا أن يتشبعوا بمختلف أصناف الفكر والعلوم، في دائرة مجتمعاتهم وأقاليمهم التي يشهد التاريخ على تجذر التقاليد العلمية والثقافية الإسلامية لدى أفرادها الذين يتسمون بالنبوغ. وأكبر دليل على هذا، هو أن المغرب قد حقق اكتفاءه الذاتيَّ

[5]ـ بما أن الرِّحْلات تعج بذكر الأخبار، وتخليد الثقافات المكتوبة والشفوية، فإنه من الأليق اتخاذ مضامينها وصيغها الفنية، طرقا مؤدية إلى التزود بوثائق من نوع الوثائق المستنبطة كما ألمحنا آنفا، خصوصا أن الوثيقة في حقيقة أمرها، هي كل مصدر للأخبار المقترنة بالسلوك الذهني للمؤرخ الذي يعرف كيف يستقي معرفة خاصة بالماضي الإنساني الذي يدرسه استنادا إلى إشكال يثيره[4]. انظر في هذا الصدد مؤلف لوسيان فيبر عن المعرفة التاريخية.
De la connaissance historique. p73 .

[6]ـ هذه حقيقة ثابتة تفصح عنها مؤلفاته ومواقفه ويؤكدها كثير من الباحثين. انظر مثلا علي صدقي أزايكو، في الذاكرة المستعادة : 106.

على المستوى التعليمي ـ على الأقل ـ حيث لم يكن طلبة العلم مضطرين إلى السفر خارج المغرب منذ عهود متقدمة. وليس من شك في أن المجهود العلمي الذي بذله المرابطون والموحدون ثم المرينيون، مكن المغاربة ـ وخاصة بعد سقوط الأندلس سقوطا نهائيا ـ من تحقيق استقلالهم الخاص في ميدان العلوم الدينية والأدبية، وذلك مما جعلهم يستغنون عن مراكز الثقافة الإسلامية بالمشرق[7].

لقد اختار السوسي إذن أسلوبا عمليا يكمن في تجليته لملامح القوة ومظاهر الإشعاع في الماضي، من أجل تحريك الهمم ومواجهة الخطط الاستعمارية الساعية إلى طمس معالم الأمة ومسخ هويتها التاريخية. وهكذا، فإن إثبات السوسي لمكانة المراكز القروية المغربية ورسالتها عبر التاريخ، لم يكن مجرد كلام مبني على الانفعال والحماسة الزائدين، أو وهم قائم على أساس مغلوط وجوهر فاسد. بل هو حقيقة تاريخية لا أثر فيها لتعصب إقليمي، ولا صلة لها بأشكال التطرف في الرأي. إنه حقيقة ثابتة يستطيع إدراكها كل باحث موضوعي. بل إن هذا الباحث يعرف جيدا أن لمناطق سوس التي يتحدث عنها المختار السوسي في مختلف تآليفه، قيمة كبرى.

ويكفي هذا الباحث النظر إلى الموقع السياسي الذي استأثرت به بادية جنوب الأطلس ردحا من الزمن، حيث كانت هذه البادية متحكمة في الحركة السياسية في المغرب كله، خصوصا في أطوار الأزمات إلى حدود النصف الثاني من القرن 17 الميلادي. إلا أن مكانتها بدأت بعد ذلك تسير نحو التقلص، بسبب العوامل الخارجية المتمثلة في التدخل الأوربي، حيث انقلبتِ التوازنات الداخلية لصالح المراسي الأطلسية والعواصم الإدارية،

---

[7]- الذاكرة المستعادة، منشورات اتحاد كتاب المغرب، 1984 : 111.

ليكون التدخل الفرنسي المباشر في بداية القرن العشرين، دالا على تفوق المراكز الحضرية شمال جبال الأطلس[8].

وجدير بالإشارة أن المشروع النضالي للسوسي، كان ذا بعد وطني عميق. ولا يخفى على المهتمين بالتأريخ لحياته، أنه كان من بين الأوائل الذين أسهموا في تأسيس الحركة الوطنية، والذين تعرضوا إلى مرارة النفي والقمع من قبل الاستعمار. وعلى الرغم ممّا ابتُلي به هذا العالم من محن، بقي محافظا على نهجه النضالي، مؤمنا بقيمة التربية الروحية والحضارية، ومتشبثا بالهوية العربية الإسلامية. وما تحويله زاوية والده بدرب الرميلة بمراكش (أول المحرم 1348هـ)، إلى مدرسة منظمة، إلا تأكيد على إيمانه بأهمية التربية العلمية المنظمة والمستندة إلى الأصالة. فلولا هذه التربية، ما كان ليتيسر - حسب ما يستفاد من موقف السوسي - تأسيس معرفة قادرة على إحداث نهضة حقيقية[9]. أما التعريف بمجاهل المغرب، فهو إجراء وظيفي يحقق لديه نوعا من الوصل بين القارئ المغربي وحضارته التي ينتسب إليها، بأن يهيء لهذا القارئ الفرصة لاكتشاف تاريخه بواسطة تراكم معرفي مخصوص. فالمعارف التي يبتغي السوسي إيصالها إلى قارئه، تدعو إليها حاجات ثلاث؛ انتماء وطني صادق، وولاء للدين، وشغف بالتراث.

ولعل حديث السوسي في رحلته خلال جزولة عن منطقة أزاريف مثلا[10]، بإشارته إلى سادة هذه المنطقة ومعالمها الحضارية، لا يمثل أحد الاستثناءات فيما ذكرناه، فهو حديث مقترن أشد الاقتران بالدواعي التي ألمعنا إليها، ودليل واضح على تمثل الرحالة لتاريخه تمثلا صادقا، وتقمصه له تقمصا واعيا.

---

[8]- الذاكرة المستعادة : 113.
[9]- المرجع نفسه : 116.
[10]- خلال جزولة : 2/ 101 - 102.

لقد تكلم الكاتب عن الكتب التي وجدها في الخزانة الأزاريفية، ووقف عند ذكر بعض الفوائد التي تتضمنها جملة من الأخبار العلمية الواردة في تلك الكتب، وأشار إلى نوادر المخطوطات من كتب غريبة ونسخ قيمة، وعني بوصفها وتحديد مقاصدها، وعدّد تسعة وسبعين أثرا من بين مختصر ومنظوم، وشرح منظوم، وشرح وذيل شرح، ورسالة وفتوى، ووجيز في تفسير القرآن الكريم، ومجلد في دراسة اللغة العربية، وما إلى ذلك من ألوان الكتابة العلمية والدينية. وتحدث المختار السوسي أيضا عن المجالس العرفانية التي أفاد منها في أزاريف[11].

ويهمنا في هذا المقام الوقوف عند وحدة سردية تبدأ بوصف المدرسة الأزاريفية، وتنتهي بزيارة أحد الشيوخ. فقد وصف السوسي هذه المدرسة الموجودة على قمة جبل من صفوان، حيث يتبدى المكان موحشا يبابا، ثم يظهر محاطا بالشعاب العميقة. وخلال هذا الوصف يلتفت السارد ليحدثنا عن الذئب الذي يشارك الإنسان في أفنية الديار نهارا، فيتراءى هذا الذئب للعيان كائنا مستأنسا وداجنا. ويشير الكاتب بعد ذلك إلى الأبطح الموجود على يسار أزاريف، والمسمى تاسيلا أزاريف، ويتمنى لو أن سادة أزاريف تقدموا قليلا ليسكنوا فيه. لكن حكمة الله قضت أن يشرف الجبل الوعر بهم، ويعمر اليباب القفر بأمثالهم.

وبعد ذلك، يذكر الرحالة زيارته في المدرسة لمقبرة الشيخ الصالح سيدي إبراهيم أفلول، الجد الأعلى للأزارفيين الذي انتقل من سملالة إلى هذا المكان. ويعد السوسي كثرة القبور في هذا الموضع الذي يزوره، أمارة دالة على عمارة عظيمة في الماضي.

---

[11]- خلال جزولة : 2/ 101 - 102.

وتنتهي هذه الوحدة بذكر الرحالة لإشارات تكتسي طابعا روحيا، إذ يدعو لأئمة الدين ويختم محدثا عن رؤياه :«فقلت اللهم ارض عن أئمة هذا الدين الحنيف، وأعد علينا من بركاتهم، وألحقنا بهم مسلمين، آمنين، غير مفتونين. وقد رأيت هناك رؤيا تسرّ ولا تغرّ»[12].

نتواصل بيسر مع كلام الكاتب وهو يحدثنا عن مشاهداته في أزاريف، فحديثه واضح المقصد، وعباراته غير مشكلة أو مبهمة، ومعانيه غير مستعصية على الفهم. وكل هذا من شأنه أن يضفي على خطاب الرحالة صفة التماسك أو الاتساق، لاسيما أنه خطاب معتمد على حسن تركيب الأفكار المتجاوبة مع الصور الذهنية عند القارئ.

حديث المختار السوسي من خلال هذه الوحدة، يعطينا إذن صورة للتداخل بين الأدب والتاريخ. ولا نشك إطلاقا في أن قوام هذه الصورة هو التفاعل المثمر بين المرء ومحيطه، سواء أكان هذا المحيط إنسانا أم حيوانا أم بيئة أم عمرانا. يثبت لنا هذا الحديث مقدار الاحترام الذي يكنّه الرحالة لسادة أزاريف وأهاليها، نظرا إلى المكانة العلميّة الرفيعة التي يستأثرون بها على مدى التاريخ، فضلا عن أريحيتهم وحسن طباعهم ودماثة أخلاقهم.

أما صورة الذئب المستأنس الداجن، فهي تحمل كثيرا من الغنى الدلالي. ولا نعتقد أن هذه الصورة من قبيل الزيادة التي يلجأ إليها بعض الأدباء في عرضهم للحقائق ووصفهم لها عن طريق الخيال والمبالغة. ليست الصورة هنا سوى نتاج واقع يستأنسه المجتمع، على الرغم من مفارقاته العجيبة. إن معيار الحكم في هذه الحال معيار تداولي، لأن أهالي أزاريف هم الذين يملكون سلطة التمييز بين ما هو صادق وما هو كاذب فيما التزم المختار

---

[12]- نفسه : 2/ 103.

السوسي بالإخبار عنه. ومما يعضّد رأينا هذا ويعززه، هو أن الكاتب تحلى بصفتي الأمانة والحياد، لما قال: «أخبرونا بتلك الحقيقة التي نجهلها»[13]. وبذلك، فإن الأهالي هم الذين ينقلون الخبر إلى مقام الحقيقة. ومن ثم فإن كل تفسير يزعم صاحبه بأن صورة الذئب المستأنس الداجن صورة متخيَّلة، أي من وحي خيال الرحالة، هو تخريج مفتقر إلى الحجة النصية والسياقية.

وتلفت نظرنا في هذه الوحدة السردية أيضا، صورة التصافح بين الماضي والحاضر في مجتمع يحرص أفراده على ألا يفتر إيمانهم بقوة ماضيهم وعظمته. بل هم يصرون على ألا يبطل جدل الأحياء والأموات. وما زيارة قبور الصالحين سوى مثال يدل على الرغبة في التواصل الحضاري بين السلف والخلف. فلا عجب في أن يستدعي الكاتب أثناء وصفه للمدرسة الأزاريفية، حقائق تاريخية ليُذكِّر بالحضارة والأمجاد الماضية لأهل أزاريف. والظاهر أنه لم يبد أثناء وصفه هذا مقصرا في مهمته من حيث كونه ناقلا للأخبار ومدققا في عرض تفاصيلها، ولذلك تأتت لنا العوالم الموصوفة في سيماء توحي بالصرامة والدقة اللتين لا نطمئن إلى تفسير لهما، غير جعلهما خلّتين علميتين رئيستين يلح في طلبهما كلّ مؤرخ يريد أن يتبوأ مقاما شريفا في مصاف المؤرخين النزهاء.

وعندما نسلم بأن السوسي سارد، ونستحضر مهمته بوصفه مؤرخا، نستطيع حينئذ أن نتتبع المواطن التي تدل على تدخله بوعيه في توجيهه لحدث ما، أو ترجيحه كفة فكر دون آخر، أو انتصاره لقيم دون غيرها، مع تلوينه لمرئياته الموصوفة وتوجيهها توجيها روحيا، وفق صيغة دينية مناسبة. إن الطريقة التي أركم بها الكاتب أحداثه ومواقفه المروية، تنتهي إلى إثبات موقف ديني واضح؛ فتوضيح الحديث عن الرؤيا التي رآها الرحالة والتي تسر ولا تغر، يمنح السرد نوعا من التوازن، حيث يجعل الرحالة يأخذ

---

[13]- - نفسه : 2/ 103.-

موقعه في النص باعتباره مشرفا على العملية السردية، ومسؤولا عن تقديم الأحداث أو تأخيرها وتنظيم مجرياتها استنادا إلى منطق الأخذ بالسبب والنتيجة، وباعتباره أيضا قوة فاعلة في توجيه طريقة الحكي. إن المختار السوسي يبدو مصرا على أن يتفاعل تفاعلا ذاتيا وإراديا مثمرا، مع الوقائع التي يذكرها في رحلته، وتلك هي مهمة المؤرخ الحقيقية؛ فلا يمكن للرحالة أن يكون مؤرخا، إلا إذا كانت أحداث رحلته ذات مغزى، أي أحداثا تاريخية فعلية مختلفة ـ بداهة ـ عن غيرها من الأحداث الطبيعية، فأحداث التاريخ «ليست مجرد «ظواهر»، ولا هي مجرد مشاهد تعرض للتفكير، وإنما هي أشياء لا ينظر إليها المؤرخ فقط، وإنما يتعمق في دراستها ليتبين ما تنطوي عليه من تفكير»[14].

والخلاصة هي أن الأحداث والجوانب الموصوفة، لم تتراكم في تلك الرحلة بصورة اعتباطية، وإنما تمّ صوغها وحبكها بطريقة منظمة، لتعكس بذلك رؤية هادفة، ووجهة معلومة، لدى الكاتب.

وإذا كنا نلاحظ في هذه الرحلة غياب التوتر الحاد الذي يستصحبه نوع من القلق، فإننا نلمس توترا يحيط بذكر الحيوان الذي وُظف بصورة تُحْدِثُ خرقا لما هو مألوف. غير أن هذا التوتر لا يمثل غير ملمح عابر تخف حدته وتخمد، بحكم سلطة الحسم لدى الجماعة ـ كما أشرنا سابقا ـ ولذا نرى أنه من التعسف في الرأي، أن نعد التوتر سمة طاغية على الأسلوب الذي اختاره السوسي في هذه الوحدة. وفي مقابل ذلك، نستطيع أن نستخلص أن هذا الكاتب يجنح نحو طريقة خاصة في سرده، حيث يرجح مبدأ الاتزان في الوصف، مع تغليبه للحس التوجيهي والبعد الروحي. ويمكن أن نقول تبعا لذلك، إنه ينحاز للعقل بوصفه ضامنا لكتابة راجحة وهادئة، وسبيلا إلى إبلاغ محتويات واضحة ومحددة. لهذا نراه يجد في سعيه قصد اجتناب المعاني المترددة في نفسها، لأن ما لا يندرئ عن الاشتباه من

[14]- فكرة التاريخ : 375.

وجهة نظر التأريخ النزيه، لا يصح إثباته بالكناية، ولأن الاعتبار في الأمر كله في هذا الباب، هو وضوح الفكرة وتكيفها مع المنطق التاريخي.

وقد يُعزى تغليب عنصر العقل عند الكاتب إلى اعتنائه بالفكرة أكثر من اعتنائه بمظهر اللغة والأسلوب. فلا سبيل إلى قراءة الرحلة عند السوسي إلا عن طريق استيعاب مقاصدها التاريخية التي تكمن في الإحاطة الدقيقة بالأخبار، وتقصي الأحداث، وإعطاء صورة أمينة للأمكنة والمعالم الموصوفة. مهمة السرد عند السوسي إذن غير منافية للحقائق التاريخية التي يؤمن بها. مهمته هي الوفاء للتاريخ، وتمثل قيمه ومضامينه على نحو يعتد السارد فيه بالذات المغربية المسلمة.

وإذا كان مفهوم التاريخ يتردد استعماله بكثرة في الخطاب الرحلي عند السوسي ليصبح بذلك مفهوما مركزيا، فإن هذا لَيثبت مقدار فخر الكاتب واعتزازه بالأصول الحضارية العريقة لأهل المغرب عامة، ولأهل سوس خاصة. ثم إن موقف هذا العالم يمثِّل في هذا الشأن ردا ضمنيا على النظرة الاستعمارية العنصرية من جهة أولى، وعلى النزعات اللاتاريخية العدمية من جهة ثانية.

يقرن الرحالة في معرض حديثه عن فوائد آيت حامد، موضوع العلم بموضوع التاريخ، حيث يقول: «تلك فوائد آيت حامد الجليلة، وتلك خزائنها العلمية، فلْنسطر هنا للتاريخ شكرنا الكثير الفياض المنبعث من أعماق القلوب، لهؤلاء العلماء الذين فتحوا لنا خزائنهم، ومدوا لنا كل ما نتطلبه منهم، من غير منة، ولا ادعاء أفضال»[15].

ويقوم بالعمل نفسه حين يذكر اعتناء علماء آيت حامد منذ القديم بالأدب، فيقول: «لولا لعب الضياع بآثار كل الأدباء الحامديين، لأمكن أن تتخذ من آدابهم صفحة مذهبة يزداد

---

[15]- خلال جزولة : 2/ 126.

بها سوس مجدا إلى مجده السامي. وقد مرّت في الحامديين أسر علمية أدبية. إلا أن الأسرة التليكاتية العالمة الأديبة، أسمى أسرة يطن بأخبارها التاريخ»[16].

ويقول أيضا: «وأما الأسرة التليكاتية الأديبـة الماجدة، فلنسطر هنـا فـي هذه الرحلـة مـا سقط إلينـا مـن أخبارهـا، ولعل مـا نجمعـه هنـا عنهـا، هـو كل مـا يعرفـه التـاريخ والبحث عنها»[17].

يلتحم السرد عند المختار السوسي برغبة واضحة لديه في ممارسة التحليل التـاريخي. ومن ثم يجعل هذا الرحالة حديثه عن مشاهداته حديثا غنيا بالاستطرادات التـي هـي علامـة مبيّنة للحركة الموجهة له وللمنطق المتحكم في لغته. وفي هذا الصدد، نـرى أنـه من المفيد الإشارة إلى نص له يحمل عنوان «إحصاء عن ماسـة فـي القرن الماضـي»[18]، وهـو نـص يمتاز في عمومه، بنزعته التاريخية المهيمنـة، حيث يعتمد صـاحبه علـى تحـري الدقـة فـي ضـبط الحقـائق مـع الاستناد إلـى آراء المـؤرخين وتصـوراتهم، ثـم مناقشـتها واسـتخلاص النتائج بعد تمحيصها.

ينطلق الرحالة المؤرخ من ذكر بعض التفاصيل التاريخية عن ماسة، معتمدا على قول للفقيه إبراهيم بن محمد الماسي، في كتاب كتبه بالأمازيغية، ثم بالعربية، ثم نقله هودكسون الأمريكي. ويصحح بعض الأخطاء التي وقع فيها المؤرخـون فـي سياق ذكـر خـراج ماسـة للسلطان عبد الرحمن. ثم تنضاف إلـى هذه المعلومـات التـي هـي من جنس التـاريخ والتـي تندرج في صميم بناء الخطاب الرحلي أخبارٌ أخرى وتعليقات تمثِّل مادة علميـة ذات قيمـة.

16- المصدر نفسه : 2/ 126 - 127.
17- نفسه : 2/ 127.
18- انظر المصدر نفسه : 2/ 227.

ومن هذه الأخبار والتعليقات ما ذكره دوكاستري عن ماسة من كلام لا ينزل منزلة الصدق في كل ما احتواه[19].

ويتسع السرد الرحلي لاستيعاب الخيال الشعبي اللطيف والغني بدلالاته التاريخية العميقة؛ فمما تداوله الناس في التاريخ، أنه كان في ماسة معبد سقفه من أضلاع سمكة العنبر، حيث صار «من الجاري على ألسنة الناس العوام أن سمكة النبي يونس صلى الله عليه وسلم قذف بها البحر إلى هذه الشواطئ»[20]، بل إن ابن خلدون يذكر أن العوام يعتقدون أن الإمام المهدي سوف يخرج من ماسة. والحق أن اتساع هذا السرد محكوم عند السارد بمهمة التأريخ التي تعتمد على منطق الحجة والوثيقة. وما سوى ذلك إن هو إلا اضطراب في الرأي وزعم وافتراء، حسبما يتجلى في هذا النص التاريخي الذي ذكرنا، خصوصا أن المختار السوسي يعيب فيه على المؤرخين الأجانب، اضطرابَ آرائهم في مسألة تحديد مدلول ماسة. ومكمن الخطإ لديهم - في اعتقاده - هو أنهم يحسبون ماسة موضعا واحدا، مع أن الحقيقة غير ذلك.

ولئن كان هذا الرحالة المؤرخ يتقصد اليقين في رحلته، فإنه من الطبيعي أن تبدو كتابته عن المدن والمواضع التي يراها مقرونة بالحجة التي يحرص على طلبها الحرص الشديد. فما كان له أن يتخلى عن منهجه المأثور في الاستقصاء والبحث، إذ لا تصح المعرفة التاريخية من منظوره، إلا إذا تحاشى الساعي في حظها الولع بالمخيلات التي يكون فيها من البهتان قدر غير يسير. ولأجل هذا نجد هذا المؤرخ يستقصي في أكثر من موطن آراء غيره من المؤرخين، فيعرضها ضاما فيها النظائر إلى بعضها، ومائزا بين الوجوه، وذلك حاله فيما خلص إليه بشأن تاريخ المدينة المذكور؛ فلقد رأى أن المدينة التي يذكر وجودها

19- نفسه : 2/ 228.

20- نفسه : 2/ 229.

في ماسة، كان موقعها أعالي الوادي، وقد دمرت بعد القرن الخامس. أما رباط سيدي وسلي، فمن الثابت أنه اشتهر بأنه موضع لمسجد عقبة بن نافع، وأن أصل شهرته ارتباطه ببركة ذلك الفاتح، وببركة كونه رباطا لحراسة البحر. غير أن عهد سيدي وسلي، يرجع - حسب ما يراه السوسي - إلى نحو القرن السادس أو السابع فقط. أما قول ابن الوزان بوجود ماسات عدة، فهو لدى السوسي مثار لتوليد فكرة جديدة مفادها أن قرى ماسة متعددة[21].

ويمكننا تجميع الملاحظات السابقة حول نص «إحصاء عن ماسة في القرن الماضي» في تركيب نضمنه النتائج الآتية :

1 - إن التحليل التاريخي عند السوسي متضمَّن في جنس سردي قائم بذاته، هو جنس الرحلة، وإن هذا التحليل يبقى مكوِّنا أساسيا لا يستقيم للخطاب الرحلي كيان دونه.

2 - إن المختار السوسي غير مقصِّر البتّة في استعمال العقل وممارسة النقد للمادة التاريخية المتوافرة لديه[22]. كما أن رؤيته التاريخية واسعة الأفق وقابلة للتحاور.

3 - لا يمثل منهج الكاتب في التاريخ الخاص) التاريخ البلداني (حجابا يمنعه من الانفتاح على مناهج التاريخ العام وطرقه، والموازنة بين آراء المؤرخين العرب والأجانب.

4 - لا شك في أن منهجية المختار السوسي في سرد الأخبار وتتبعها بالدرس والمعالجة، وإرفاقها بما يلزمها من الشرح والبيان والاستدلال، تقترب في كثير من

---

[21]- نفسه : 2/ 230.

[22]- نجد أن النزعة العقلية والنقدية حاضرة في مواطن كثيرة في التأريخ الذي يمارسه المختار السوسي خلال رحلته، ومما يعزز ذلك تعليقه الخاص بوثيقة تقرن اسم مدينة تزنيت بحكاية ذات طابع أسطوري، فهذه الحكاية في نظره حكاية مخترعة، وأثر الكذب يلوح عليها من جهات شتى لمن يعرف التاريخ. وأبعد من هذا، نجد أن السوسي يستثمر معرفته اللغوية لإبطال الرأي الذي يقرن ارتباط تزنيت بالزنا، فيقول بأنه لا ينبغي أن يعوّل على وثيقة واهية من ناحية التاريخ، ومن نواحي أخرى لا تخفى على اللبيب، كلفظة الزنا العربية التي لا أصل لها في الاستعمال اللغوي في الأمازيغية. انظر خلال جزولة : 2/ 191.

أوجهها ومناحيها، من مناهج سلكها علماء ومثقفون مغاربة عملوا، استجابة لظروف تاريخية خاصة في مطلع عصرنا الحديث، على التأريخ لمدنهم وقراهم، اعتمادا على أسلوب انتقائي يقوم على أساس الاستفادة من إرث المؤرخين الأجانب والعرب، ويسلك في ذلك مسالك ترجيحية موازنة.

5 - والأساس في كل ما سبق ذكره، هو أن الكتابة الرحلية عند السوسي لم تكن ترفا، بقدر ما كانت جزءا من هوية شخص ينظر إلى التاريخ من زاويته الاعتبارية، ومن ثم يجعل سيره في الأرض لسان حال شاهد على أن للأمة التي ينتمي إليها، وجودا حضاريا ودينيا متجذرا في العمق.

وباختصار شديد نقول إن الكتابة عنده رد على المنطق الاستعماري، وسعي لإثبات أصالة الأمة وهويتها. وبالنسبة إلينا فإن وقوفنا عند هذا النمط في الرحلة كان من صميم اختيارنا لنوع من الأدب عند الرحالين المغاربة الذين يعكسون في رحلاتهم موقفا عميقا من الإنسان والعالم؛ فإذا كان لكل مذهبه الخاص وأسلوبه المتبع أو المبتدع، فإن مما لا خلاف فيه أن الرحلة في هذه الحال تظل مثالا حيا يجلو صورة الذات المغربية المسلمة في سياق مفاعلتها لحضارات الشعوب الإنسانية، وينقل نبض الأمة ووعيها بسبل الخلاص من أصفاد التبعية والتقليد.